الفصل السابع

ذكر فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب بفضل معجزات وبركات النبى ﷺ

أما سبب فتح مصر فهو أن الإسكندر اليونانى كان فاتحًا عظيمًا فاستولى على الأقاليم السبعة، ثم دخلت مصر فى حوزته فجعل للمقوقس القبطى رتبة الإمارة، ولكى يمضى إلى مكة والمدينة قطع طرق النيل قبالة بنى سويف، لما لم تصل السفن إلى السويس قحطت مكة والمدينة وغلت الأسعار، ورغمًا عن الكفار أرسل إلى القدس ثمانين ألف جندى وفتح عمر بنفسه القدس الشريف، وأمَّر خالد بن الوليد على جيش قوامه أربعين ألف مقاتل لفتح دمشق، وأثناء حصاره لدمشق جاءه مدد من أربعين ألف جندى، وفتح خالد بن الوليد بقوة ساعده دمشق واستخلصها من يد الملك خرقيل العنيد، وأرسل ما غنم من غنائم إلى المدينة المنورة، وقد أسماه الرسول ﷺ سيف الله المسلول، وفى عصر النبى ﷺ كان خالد بن الوليد أول من خرج إلى الروم، ثم شق الروم فى القدس عصا الطاعة، ففتحت فى خلافة عمر، فاستاء الروم والقبط من خالد، وبينما كان جند الروم ينهزمون أمام جند العرب أرسل خرقيل من قبل ملك أنطاكية مددًا قوامه أربعون ألف فارس، وأربعين ألفًا من المشاة الروم إلى قلعة الإسكندرية ومصر، فانشرحت لذلك صدور الروم والقبط؛ وكان عمرو بن العاص فى الجاهلية من أثرياء قريش، وفى كل عام يمضى إلى البصرة والقدس الشريف، وهناك كان يستظل بشجرة طلبًا للراحة، واتفق أن ظهرت له أفعى كأنها تنين وهاجمت من كان فى ظل الشجرة، فحمل عمرو قوسًا ورشق الأفعى بها، فاستيقظ من كان نائمًا فى ظل الشجرة ورأى عمرو وهو يرشق الأفعى بالسهم، فسأل هذا الرجل عمرًا ما هذا؟ فقال له: رشقت الأفعى بالسهم وقتلتها. فأكب الرجل على يد وقدم عمرو، فقال عمرو: أنا مسقط رأس مكة، وأنا من آل هاشم. فقال الرجل: أنا أخوك فى الدنيا والآخرة، وتلك الأخوة جزاء إنقاذى من الأفعى، قال عمرو، إنما صنعت هذا حسبة لله، أنا أعيش من التجارة فى كفاف وحاجتى ماسة إلى الله.

قال الرجل: يا أخى أنا كذلك تاجر عظيم فى الإسكندرية، أنا شماس واسع الثراء ولى أملاك كثيرة فى الإسكندرية، ولكنى قدمت إلى القدس للزيارة، والآن أنا غريب الديار، تعال معى إلى الإسكندرية، وسأعطيك سكة ذهبية وجواهر ثمينة وأقمشة فاخرة، وسأبعث بك إلى مكة فى قافلتين تحملان مالاً جزيلاً، قال ذلك راجيًا، وأقر ذلك من سمعه، كما أن عمرو لم يعترض وقطع المنازل وطوى المراحل من القدس حتى دخل الإسكندرية بعد أيام عشرة، ونزل ضيفًا على دار الشماس، ووفّى الشماس بوعده وأعطى عمرو عشرة آلاف ذهبًا ومضى به إلى متنزهات المدينة، وبينما كانا يشاهدان ما حولهما، اقتضت حكمة الله أن جاءت الكرة إلى الصولجان وخطر لعمرو رأى، وأخذ العجب مأخذه من جميع الحضور فى المجالس وكان بين أهل الإسكندرية عقيدة مؤداها أنه كل من كان على رأسه صولجان وكرة أصبح ملكًا، وهزأ الناس جميعًا من تلك الكرة التى على رأس عمرو، وقالوا: هذا العربى أيصح أن يكون ملكًا علينا؟! وابتسموا، ومضى عمرو مع الشماس إلى داره وكان الشماس فريد عصره فى علم الإسطرلاب فنظر فى طالع عمرو فرأى أن له مُلك مصر، ولما أصبح الصباح قدم إليه سبعين جملاً تحمل المال، فأرسل عمروًا إلى مصر ومكث عمرو فى مصر شهرًا، ووقف على كل أحوال مصر، فمضى إلى مكة فى قافلة عظيمة، وقدم إلى جميع أهل مكة الهدايا، ومدح قلعة الإسكندرية ومصر أم الدنيا إلى حد أن جميع جند الإسلام دعوا الله أن يفتح عليهم مصر، ومثل عمرو فى حضرة الرسول ﷺ وعرض الهدايا وقبل الرسول من الهدايا، فرفع عمرو يده وشرف بالإسلام وألحق بزمرة الصحابة الكرام، ووصف للرسول ﷺ الإسكندرية ومصر على الحقيقة، فَسُرّ ﷺ وقال: «اللهم يَسِّرْ بالعمرين» وجعل يرغب الصحابة الكرام من يوم إلى يوم فى فتح مصر والقسطنطينية.

وبلغته من المقوقس ملك مصر الهدايا والرسائل مراراً؛ وجاء فى إحدى الرسائل: «يا محمد لقد غلبنا وظلمنا من الروم وسلبوا مصر من يدنا»، وبعد نصر النبى ﷺ فى العام السادس للهجرة فى غزوة الحديبية أَوْفَدَ الرسول ﷺ أبا الدرداء وحاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى عظيم مصر (المقوقس)، وبلغا مصر سالمين لدعوة المقوقس إلى الدين

الحنيف، وفى هذا روايات مختلفة، فى إحداها أن المقوقس وقع على الرسالة بأنه أسلم وأرسل المقوقس مع ذى النون ثلاث جوارٍ وبغلاً وسيفًا، فقالوا:

يبعث نصر إلينا ∴ وحتى فتح الله علينا

ومن المحقق أن النبى طاب بذلك نفسًا، ومن المؤكد المحقق أنه أحبه حبًا جمًا.

نقول والعهدة على الراوى: إن أبا الدرداء مع ابن أبى بلتعة قدما من قِبَل المقوقس، ووصفا للنبى ﷺ طيب هواء مصر، وأنواع الزروع فيها، والمطعوم والمشروب بها، وحاصلاتها، فقال النبى ﷺ عدة أحاديث خاصة بمصر، كما سيرد ذكره. وصرح بتفضيل القرآن الكريم لمصر وما ورد فى ذلك الأمر على طريق القصص تلاه تصريحًا وتنبيهًا بمسمع ومشهد من الصحابة، وبذلك أقنعهم بغزو مصر.

* * *